المبحث الأول

مفهوم التعايش مع الآخر

يقول تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"

(الحجرات ١٣)

obeikandl.com

الآخر الذي نعنيه:

كل شيء اختلف عن غيره في شيء فهو بالنظر إلى نقاط الاختلاف آخر، وبالنظر إلى نقاط الاتفاق جزء من الذات.

فبالنظر إلى نقاط الاختلاف يصبح الأخ آخرًا بالنسبة لأخيه (الشكل، الفكر، ....الخ)، ولا يصبح كذلك عند النظر إلى نقاط التشارك والتماثل (الانتماء إلى أب واحد، وأم واحدة، ومكان نشأة واحد، وبيئة واحدة ...الخ).

ومن ثمة فلا يمكن تحديد الآخر بمعزل عن الذات، فحدد ذاتك يتحدد آخرك.

فكل ذات لها دوائر عديدة يتداخل بعضها مع دوائر غيرها بدرجات مختلفة ويتخارج بعضها الآخر: كالثقافة والدين والعرق والمرتبة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والتوجهات السياسية ...الخ.

وفي دراستنا هذه سنقصر حديثنا عن الآخر على الإنسان ونستبعد غيره من جماد ونبات وحيوان ... الخ. ونقصد بـ "الإنسان الآخر": الإنسان المختلف في أي من وجوه الاختلاف القادرة على تعويق التعايش معه.

التعايش بين اللغة والاصطلاح:

إن صيغة "تعايش" تأتي على وزن "تفاعل" وهي صيغة لها في العربية عدة معان[٧]، منها:

- "التشريك بين اثنين فأكثر، فيكون كل منهما فاعلا في اللفظ [وفي المعنى]، مفعولا في المعنى"[٨] وبهذا المعنى فإن

---

(٧) تضفيها على الكلمة المصاغة على وزنها.

(٨) أحمد الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف، ص٣١.

الدعوة إلى التعايش مع الآخر:

- لا تعني الدعوة إلى إلغاء طرف (الذات أو الآخر)، أو دمج طرف في طرف؛ فلابد وأن يظل هناك طرفان مختلفان؛ لكل منهما ما يميزه عن غيره من صفات وأفعال لا يشاركه فيها آخر؛ وإلا بطل هذا المعنى للتعايش[٩].
- كما أن الاشتراك في الفاعلية والمفعولية يقتضي للتعايش الحرية والعدالة؛ فلا يتحقق التعايش بالظلم أو الإكراه: للآخر[١٠]، أو حتى للذات؛ ومن هنا فلا يتحقق التعايش مع الآخر باستمرار الدعوة إلى تحمُّله، والصبر عليه....الخ من كلمات[١١] توحي بعدم التشارك في الفاعلية والمفعولية؛

(٩) وعليه فإذا أنكر طرف وجود الآخر تعذر التعايش معه فلا تعايش مع منعدم؛ تقول جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في حوار معها منشور في كل من صحيفة: (Sunday Times15 June 1969)

وصحيفة: (The Washington Post 16 June 1969)

ما نصه:

"It was not as though there was a Palestinian people in Palestine considering itself as a Palestinian people and we came and threw them out and took their country away from them. They did not exist".

أي: "إن الأمر ليس كما يُظن، فليس هناك شعب فلسطيني في فلسطين يعتبر نفسه فلسطينيا وجئنا ورمينا به وأخذنا بلاده منه، إن الفلسطينيين لم يوجدوا قط". ولا شك أن النتيجة المترتبة على مثل هذا التصريح هي أن التعايش بين الشعبين أمر مستحيل الوقوع، فلا تعايش مع منعدم.

(١٠) فيجبر على الرضوخ لتلك الثلاثية الظالمة: (وافق، أو نافق، أو فارق) فإن لم يوافق راضيا ليتحقق التعايش، ولم يستطع أن يفارق، فليس له إلا أن ينافق.

(١١) توحي بنوع من الاحتقار له، والتعالي عليه، وإكراه النفس على معايشته.

وبناء على ذلك ذهب بعض الدارسين إلى وجوب استبعاد كلمة «التسامح» من قاموس التعايش، من منطلق أن كلمة «تسامح» تعني: السخاء من موقف استعلاء لا يلزم صاحبه وإنما هو مجرد تكرم منه؛ حيث يوجد المتسامح في =

ولا مانع من أن يُمهَّد للتعايش باستخدام هذه الكلمات لكن التعايش لا يتحقق فعليا مع استمرار استعمالها على ما سيأتي بيانه عند حديثنا عن معنى "التظاهر بالفعل دون حقيقته" لصيغة تفاعل.

- كما أن صيغة تفاعل "ترد كثيرا لإفادة تكرر وقوع ما اشتقت منه، ..... وتجيء لإفادة قوة صدور الفعل من الفاعل"[١٢]؛ وبهذا المعنى فإن التعايش مع الآخر:

ـ لا يعني مجرد مصاحبته زمانيا ومكانيا؛ فيعيش كل طرف وحده، غير مبال بغيره، لا يَضُر ولا يُضَر[١٣]، لا يُفيد ولا يَستفيد.

ـ كما أنه لا يقتصر على السعي نحو تحقيق نوع من العلاقات الجزئية المحدودة مع الآخر سواء كانت كلامية أو فعلية: فالحوار اللفظي وإن كان ناجحا، فهو وحده لا يكفي لتحقيق ذلك المعنى المفهوم من هذه الصيغة الصرفية للتعايش؛ ثم إنه لا بد لتحقيق التعايش مع الآخر من التناغم بين القول والفعل، بمعنى أن يمارس الإنسان ما يقول، و أن

= مستوى أعلى والمتسامح معه في مستوى أُقل؛ وبناء على ذلك فهي كلمة لا تعبر أبدا عن الاحترام المتبادل بين الأطراف المختلفة.

وفي رأيي أن هذا الفهم فاته النظر إلى معنى الصيغة الصرفية للكلمة؛ فصيغة «تسامح» تأتي على وزن «تفاعل» وهي صيغة صرفية تدل على التشارك في الفعل، ومن هنا فهي تعني وجود طرفين أو أكثر يسامح كل منهم باقي الأطراف، وبالتالي نكون أمام عملية تبادلية بين أطراف متكافئة.

(١٢) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير قوله تعالى: «عما يتساءلون».

(١٣) والمقصود بعدم الضرر هنا الضرر المباشر، أما الضرر غير المباشر فلا شك متحقق من عدم التعايش.

يصدق فعله كلامه، ولا يناقضه[١٤]. . كما أن التعايش لا يقتصر على السعي نحو تحقيق نوع من التكامل المادي مع الآخر وإن اتسعت مجالاته؛ فالتعايش بالمعنى اللغوي المذكور أراه أقوى وأشمل من مجرد التكامل المادي؛ وأراه يقتضي التفاهم والتقدير المتبادل، واتساع دائرة المشاركة إلى أقصى الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر.

- كما أن صيغة تفاعل تفيد معنى المطاوعة[١٥]؛ وبهذا المعنى فإن التعايش مع الآخر إن كان لا يتحقق إلا بعد أن يقرر طرفان أن يعملا بجد في سبيل تحقيقه، فلابد لأحدهما من المبادرة، ويتوقف مدى نجاح التعايش عندئذ على مدى استجابة أو مطاوعة الطرف الثاني.
- كما أن صيغة تفاعل تفيد معنى حصول الشيء تدريجيا[١٦]؛

---

(١٤) ورفض الانفصال بين الفعل والكلام تقول فيه الأمثال العربية القديمة:
ـ «أسمع صوتا، ولا أرى فوْتا».
ـ «كلام كالعسل، وفعل كالأَسَل». والأسل الرِّماح.
وتقول الأمثال الإنجليزية:
ـ «Practice what you preach»أي «مارس ما تبشر به».
ـ «Deeds, not words»أي: « أعمالا، لا أقوالا».
ـ «Doing is better than saying» أي: «الفعل أسمى من القول».
ويقول صالح عبد القدوس:
يعطيك من طرف اللسان حلاوة * * * ويروغ منك كما يروغ الثعلب.
ويقول الله تعالى في ذلك: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» الصف:٢ ـ٣. ويقول: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب» البقرة:٤٤.

(١٥) كقولنا باعدته فتباعد. . انظر: أحمد الحملاوي: شذا العرف، ص ٣١.

(١٦) كقولنا: تزايد النيل، أو تواردت الإبل: أي حصلت الزيادة بالتدريج شيئا فشيئا. . انظر: السابق، نفس الموضع.

وبهذا المعنى فإن التعايش مع الآخر ليس بالأمر الهين، ويحتاج إلى تدرج في خطوات تحقيقه، وجهد قد يكون جهيدا، ووقت قد يكون طويلا.

● كما أن صيغة تفاعل تفيد معنى التظاهر بالفعل دون حقيقته[١٧]؛ وبهذا المعنى فإن التعايش قد يُمهَّد له [وإن كان لا يتحقق] بمراودة النفس وحملها عليه حتى يصبح التعايش طبعا للنفس؛ فالطبع بالتطبع؛ وفي الحديث: "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم"[١٨]. ثم إن مرودة النفس وحملها على الدعوة إلى التعايش كثيرا ما تثمر رد فعل إيجابي من "الآخر المدعو" فينعكس ذلك على الداعي فيزداد إخلاصا وصدقا في دعوته فيثمر ذلك رد فعل أكثر إيجابية وهكذا تتوالى الأفعال وردودها وتزداد قوتها وقوة ردودها حتى يتحقق التعايش القائم على المشاركة النابعة من الرغبة المتبادلة. يقول تعالى في ذلك:[١٩]"وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ".

وعليه فإن التعايش مع الآخر الذي نبشر به في دراستنا هذه إنما

---

(١٧) كقولنا: تناوم، وتغافل، وتعامى: أي أظهر النوم والغفلة والعمى، وهي منتفية عنه.. انظر: السابق، نفس الموضع.

(١٨) حديثٌ ضعيف، وقد ورد من حديث أبي هريرة، وأبي الدرداء، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم. فحديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه الخطيب في «تاريخه» عن أبي هريرة مرفوعًا. وحديث أبي الدرداء أخرجه الطبراني في «الأوسط»، والدارقطني في «العلل»، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»، والخطيب في «تاريخه». وحديث معاوية أخرجه الطبراني في «الكبير» عن معاوية مرفوعًا.

(١٩) فصلت: ٣٤: ٣٥.

نعني به: "التشارك ـ القائم على التحاور، والحرية، والعدالة، والإحسان ـ إلى أقصى الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر".

والتعبير القرآني عن هذا المصطلح أراه[٢٠] ورد بلفظة "التعارف" في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[٢١]؛ فالتعارف أراه ليس مجرد معرفة غير موظفة وإنما هو تعامل بالمعروف وما التعامل بالمعروف إلا التعايش الذي نتحدث عنه[٢٢].

(٢٠) وهو ما ذهب إليه د. سلمان بن فهد العودة في كتابه: «ولا يزالون مختلفين»، ص ٥١.

(٢١) الحجرات ١٣.

(٢٢) ولما كانت المعرفة بالآخر قد تنطوي على نوع أو درجة من النفور من الآخر، أو الترذيل له، فقد أبان القرآن خطأ هذا الشعور بقوله في نفس الآية السابقة الذكر: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». والتقوى ضد التعالي على الآخر وتستوجب الأخذ بيده.

obeikandl.com